فـــيرون

زعيم الشكاك اليونان

للأستاذ محمد محمود زيتون

ولد فيرون بن بلستارك الفقير حوالى سنة ٣٦٥ ق. م. فى (إيليس) بلد (هيبياس hippias) السفسطائى، و (فيدون Phédon) تلميذ سقراط. اشتغل نقاشا منذ نعومة أظفاره، وانصرف عن النقش إلى الفلسفة؛ غير أنه نشأ ومات فقيراً، وعمر تسعين عاما.

وقد ذهبت الآراء فى (فيرون) مذاهب شتى، محور ارتكازها جميعا أنه صاحب مذهب الشك الأخلاقى الذى نسب إليه وعرف به وهو (الفيرونية Pyrrhonisme) الذى امتد فى المكان والزمان ودار مع الفلك حتى انقسم شطرين: الفيرونية القديمة، والفيرونية الحديثة. ومجرد التسمية يقفنا على أن فيرون هو الجد الأول للشك وزعيم الشكاك اليونان.

عرف (فيرون) بالتقوى والورع، وعاش مع أخته (فيلستا philista) وكانت أعقل منه. كم كانت تشفق عليه، وترثى لسلوكه العجيب، وتناقضه فى الحياة: فقلما كان يوجد فى داره، وقلما كان يرى بين صحب أو رفاق، وكثيرا ما كان يحب الخلوة بنفسه وارتياد الحدائق النائية، والأماكن التى لا يؤمها الناس. وكان من عادته أن يترحل دون أن يعلم به أحد، فيسير كيفما اتفق إلى حيثما اتفق، غير عابىء بشىء ولا مكترث لشىء. حكى عنه (ديوجين لائرس) أنه كان مرة فى سفينة تتقاذفها الأمواج، وتتلاعب بها العواصف، حتى أوشك الركاب على الغرق، فهاجوا وماجوا، واضطرب جبلهم، وتوقعوا الموت فى أحضان البحر، وشحبت وجوههم. أما فيرون فلم يبال ولم يهتم، بل استمر فى برود تام وهدوء لا حد له، ثم وقف يقول «ذلك هو الهدوء الذى يجب أن يمنحه العقل والفلسفة لأولئك الذين لا يريدون أن يستسلموا للخطوب».

وكان صديقه (أنكسارك) فى صحبته يوما فسقط فى مستنقع، فلم يعبأ به (فيرون). ولم يمد له يد المساعدة بل تركه ومضى فى سبيله لا يلوى على شىء، وبقدر ما لامه الناس وأوسعوه ذماً وتقريعا، هنأه أنكسارك على ثبات جنانه، وعصمته من التألم.

ويقول عنه (شيشرون) إنه لم يفرق بين الصحة التامة والمرض الأليم. وكان سواء عنده أن يعيش وأن يموت، وكثيرا ما كان يجرى على لسانه قول (هوميروس) «ما أشبه الناس بأوراق الشجر» وقوله الآخر «أنت أيضاً ستموت بدورك، فلماذا تتحسر؟ مات قبلك (باتروكل) وهو خير منك». واتخذ شعاره «لا شىء أفضل من شىء».

كان (فيرون) محبا للرحلات، اصطحبه (أنكسارك) فى حملة الإسكندر إلى الشرق، فعرف أخلاق الهنود وطقوسهم وعاداتهم، فتركوا فى نفسه أبعد الأثر. ويقال إنه عرف الكثير من العادات والأخلاق الشرقية عند السوريين والميديين والمصريين والفرس.

وبعد موت (الإسكندر) عاد إلى وطنه وأسس مدرسته حوالى سنة ٣٢١ ق م وقد أكبره مواطنوه فلقبوه «الكاهن الأكبر» وأقاموا له تمثالا بعد موته، ثم إنه عاصر (أرسطو)، وعرف كتبه وتناقش مع ابن أخته (كالستين)، وتتلمذ لصغار السقراطيين والميغاريين خاصة، وتذوق مذهب (ديمقريطس) عن طريقهم وتعلم على يديهم الجدل، ولكنه بغض إليه، وعرف السفسطائيين وعاصرهم وصاحبهم وواطنهم، ووقف على أسرار الشرق وروحانيته. وبذلك استوعب التراث الفلسفى من منابعه الأولى.

والمعروف أن (فيرون) لم يكتب شيئا عن مذهبه، ولم يلق محاضرات، وكل ما كتبه قطعة فنية للحث على الغزو منحه الإسكندر عليها عشرة آلاف قطعة من الذهب. وكل ما انحدر إلينا عنه نذر يسير فى مقطوعات احتفظ بها معاصروه وتلاميذه وعلى رأسهم (تيمون Timon) الوفى.

وقد لخص (أرسطقليس Aristoclés) مذهب فيرون تلخيصا وافيا فقال (فيرون الإيلى لم يترك مكتوبا، ولكن تلميذه تيمون يقول: إن من أراد أن يكون سعيدا فليعتبر ثلاثا: ما الأشياء فى ذاتها؟ وما موقفنا حيالها؟ وماذا يجىء من وراء ذلك؟ الأشياء كلها بلا استثناء غير حقيقية على الإطلاق، وليست أحكامنا ولا

مشاعرنا بقادرة على أن تمثل لنا الحق أو الباطل. لذا وجب ألا نركن إلى الحواس ولا العقل . وإنما يجب أن نظل بدون رأى لا نجنح إلى ناحية دون أخرى . بهذا لا يتطرق إلينا الألم ، فإذا عرض لنا شيء وجب ألا نثبته أو ننفيه ، وألا نثبته أو ننفيه معاً ، وعلى هذا الوجه نصل إلى تعليق الحكم l'époque ومنه ينتج تعليق اليقين l'aphasie ثم ننتهي إلى الطمأنينة التامة l'ataraxie (١)

ولكي نزيد ذلك بيانا نتساءل مع تيمون ونجيب مع فيرون فنقول :

أولا : ما الأشياء في ذاتها ؟

يقر فيرون بأن الوقت نهار ، وأنه هو حي يرزق ، وأنه يرى بعينى رأسه ، وأن ذلك الشيء يلوح له أبيض ، وأن العسل يبدو له حلوا ، وأن النار تحرق كما يرى ، ولكن هل الشيء في ذاته أبيض ، وهل العسل حقا حلو ، وهل من طبيعة النار أن تحرق ؟؟ يجيب فيرون : لا أدرى .

فهو لا ينكر المرئيات والمسموعات وسائر المحسوسات ، ولكن ما حقائقها ؟ لا يدرى . فالحواس هي كل ما يملك فيرون من هذه الدنيا ، وهو يعتز بها ويؤيدها بقوة ، وظواهر الأشياء وأعراضها هي كل ما يدرك من معرفة . ولكن هل هذه الظواهر هي هي بعينها حقائق الأشياء ؟ كلا . فما الحقائق إذن ؟ لا يدرى . ولهذا يقول (تيمون) « إن المظهر ملك حيثما وجد » فإذا كان ذلك هو أمر الأشياء ، فلنسأل مع تيمون هذا السؤال الثاني :

ثانياً : ما موقفنا حيال الأشياء ؟

كل الناس أو على الأقل (فيرون) يستطيع أن يثبت للشيء صفة ، وأن ينفي عنه نفس الصفة بمقدار واحد ، لأن النفي والاثبات في كفتين متعادلتين لا مرجح لأحدهما دون الآخر : الشهد حلو ، والشهد ليس بحلو . هذان الحكمان لا يثبتان في العقل ، لأن أحدهما يمحو الآخر ، فلا يعود لهما وجود ، كالنار تختفي في الخشب الذي تلتهمه . فلا يمكن القول بأن هذا الشيء شريف أو سخيف ، وأنه صحيح أو غير صحيح ، وأن هذا الشخص هو تيمون أو غير تيمون . لماذا ؟ لأن الأضداد متعادلة في تقلبها على الأشياء ، ليس فقط في المحسوسات بل في المعنويات أيضا من فضيلة ورذيلة وعدل وظلم وغير ذلك . ولا يمكن القول بأن الشهد أحلى من العنب ، لأن التفضيل يتضمن الإثبات ، ولا يمكن القول بأن الشهد ليس أحلى من العنب ، لأن ذلك يتضمن نفي الحكم عن شيء وإثباته لآخر . والنفي والإثبات لا وجود لهما لأنهما متعارضان ، وبالتالي يفني أحدهما الآخر .

فالأحكام المضافة إلى الأشياء والمعاني لا وجود لها في الواقع ، وكذلك الأحكام المسلوبة منها ، سواء كانت تقريراً أو تقديراً ، لأن الناس في عرف فيرون « إنما يخضعون في أحكامهم للقانون والعرف » فيجب أن نلتزم الحياد التام من هذه الظواهر والأعراض ، والخير كل الخير في « تعليق الحكم » . هذا هو الموقف التوقفي الذي يريده لنا فيرون حيال الأشياء ، فماذا نفيد من ذلك ؟ هذا هو السؤال الثالث والأخير فلنسأل :

ثالثا : ماذا نجني من تعليق الحكم ؟

لا يشغل الناس في حياتهم إلا التردد بين الشيء وضده ، والحيرة بين الخير والشر . وهم كثيراً ما يجلبون الهم والغم لأنفسهم بأنفسهم فيتألمون لأنهم محرومون مما يعتقدون أنه الخير الذي إن وجدوه أشفقوا من أن يفقدوه ، ثم هم يتألمون لأنهم مرتكبون لما يعتقدون أنه الشر الذي إن أصابهم تحسروا على أن قد ارتكبوه ، فلا هم بالخير فائزون ، ولا هم من الشر سالمون . فالرغبة حرمان ، والحرمان ألم ، والألم إتيان ، والإتيان رغبة . فاجتنب الاعتقاد بالخير والشر تختفي كل الوساوس والهواجس ، فإن الشك هو الخير الحق ، ومتى استراح الناس من كابوس الخير والشر ، فليضربوا في الحياة كيفما شاءت لهم الحياة ، لا يفرحون ولا يحزنون ، يأكلون حين يجوعون ، ويشربون حين يظمأون ، لا يطمحون ولا يتحسرون . راحتهم في أنهم لا يبالون ، لأنه لا شيء في الحياة ذو بال .

هذا هو فيرون يعلق الحكم وينفي الأضرار ويتجاهل الخير والشر فيشرع لا يبالي بشيء ولا يهتم بشيء ، لأن شيئا بالتأكيد ما بلغ لم يعد يطرف عينه ، أو يهز عطفيه ولو سقط أنكسارك ولو أوشك هو على الغرق .

الشرور واقعة ، ولكن لا نستطيع ولا يستطيع أحد أن

1 Brochard : Les sceptiques grecs. p : 51

يبيدها ، وما على المرء إلا أن يخفف من وقعها عليه ، وأن يهون على نفسه منها . وليعش كسائر الطغمة الدهماء ، خاضعا لقوانين الدولة وعوائدها ودينها ، لا يثور عليها ، فقد لاقى سقراط جزاء ثورته ، فامتلأت النفوس خوفا ورعبا ، وتجمدت الارادة خنوعا ومسكنة ، حتى قال تيمون « أما نحن فلا نخرج عن العرف » .

وبهذا التوقف الاعتقادى نصل إلى الطمأنينة التامة والسعادة المطلقة حيث لا شر ولا ألم . وهل السعادة إلا غياب الألم ؟ وهل ينشد الانسان إلا السعادة ؟ وهل من سبيل إليها إلا فى تعليق الحكم وعدم المبالاة ؟

« فالأشياء مظاهر لا ندرى حقائقها ، فلنقف منها على الحياد غير مبالين بشىء فنستريح ونطمئن ونسعد »

واذا كان فيرون يلتمس السعادة فى الشك ، فانه ينخرط فى سلك المفكرين بهذه الطرافة الشائية التى أفسحت له مكانا بينهم ؛ ذلك بأن الناس انما يختلفون فى وسائلهم الى غاياتهم أكثر من اختلافهم فى غاياتهم ، واشد ما يكون الاختلاف اذا اتحدت الغايات . واذا كانت غاية الغايات عند الجميع هى السعادة ، فقد توسل لها سقراط بالعلم ، وأفلاطون بزكاة النفس ، وأرسطو بالحكمة ، وأبيقور باللذة ، وديوجين بالفوضى ، أما فيرون فوسيلته تعليق الحكم أو اللاأدرية . ولهذا يقول (وادنجتون Waddington) فى كتابه عن (فيرون والفيرونية) :

« ان أساس مذهب فيرون أنه اتخذ من الشك آلة للحكمة والاعتدال والعزلة والسعادة » أى أن فيرون اتخذ من الشك آلة للشك .

يقول الجرجانى « الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك » (١) وذلك هو اللاأدرية عند فيرون

ويستطرد الجرجانى بقوله « وقيل الشك ما استوى طرفاه ، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب الى أحدهما » وعند أبى البقاء وقيل الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ، وذلك قد

١) تعريفات الجرجانى ص ١٣٤

يكون لوجود أمارتين متساويتين عنده بالنقيضين أو لعدم الامارة فيهما » (١) وذلك هو تعليق الحكم عند فيرون .

ويقول الجوينى : « الشك ما استوى فيه اعتقادان ، أو لم يستويا ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور الذى يبنى عليه العاقل الأمور المعتبرة » (٢) وذلك هو الشك الاعتقادى عند فيرون

ويقول التهانوى « الظن عند الفقهاء : التردد بين أمرين استويا (٣) واستدل على ذلك بذكر هذا المعنى فى (الحواشى المضدية) وفى (السلم) » وعلى ذلك فالشك مرادف للظن وجاء فى (كليات أبى البقاء) « الظن يكون معناه يقينا وشكا ، فهو من الأضداد كالرجاء يكون خوفا وأمنا . وفى الحديث القدسى : أنا عند ظن عبدى بى ، بمعنى اليقين والاعتقاد » (٤) .

وما دام الشك مرادفا للظن ، والظن يقين وشك ، فالشك يكون معناه اليقين ، واليقين عند أبى هلال العسكرى « هو سكون النفس بما علم » (٥) وذلك هو الطمأنينة التامة غير فيرون .

ومن هذا نرى أن مذهب فيرون ليس من السفسطائية فى شىء ، وبذلك يكون ابن حزم مخطئا إذ اعتبر اللاأدرية مذهبا سفسطائيا ، واللاأدرية ليست مع ذلك إلا جزءا من « الفيرونية » الذى يتلخص فى ثلاث وثلاث :

١ — ما الأشياء فى ذاتها ؟.. لا ندرى

٢ — فما موقفنا حيالها ؟.. تعليق الحكم

٣ — فماذا نجنى من ذلك ؟.. الطمأنينة

على أن تعليق الحكم وعدم المبالاة ليسا من أساليب الحياة فى قليل ولا كثير . إذ التقدم ظاهرة الحياة ، وكل شىء فى الوجود يسعى إلى كماله ويتوق إليه ، ويشق به ، أما التوقف فنكوص على الأعقاب ، ونحن فى حركة دائمة مادمنا نفكر حتى لقد قال (ديكارت) « النفس تفكر دائما L'âme pense toujours » والسكون فى نظر (هرقليطس) هو الموت والعدم ، ونحن لابد لنا من أن نختار يمينا أو شمالا pour ou contre وصدق السيد المسيح عليه السلام : (من لم يكن معى كان على) .

(للكلام بقية)

محمد محمود زيتونه

(١ كليات أبى البقاء ٢) عن التهانوى نقلا ص ٧٨٥ ٣) كشاف مصطلحات الفنون ٥) الكليات ص ٢٣٩ ٦) مختصر الفروق ص ١٠، ١٤